

# هكذا تكلمت الأنسة نظيرة زين الدين في بيروت

## فتاة شامية في العشرينات تثير ضجة في الحياة الثقافية العربية بخطابها التحريري

نوري الجراح  
شاعر سوري



عندما نشرت نظيرة زين الدين كتابها "السفور والحجاب" في بيروت سنة 1928 لم تكن تجاوزت الثلاثين، من عمرها، من هنا نجد في خطابها الذي سرعان ما انقسم الرأي العام العربي من حوله، لهجة تنسم بجرأة لم تسبقها إليها كاتبة في بلاد الشام، وهي لم تطلب الحرية لنفسها وبنات جنسها وحسب، بل وطلبتها للرجل عندما اعتبرته أسير أوهامه، مستهدفة في خطابها النسوي الذهنية العامة السائدة في مجتمع شرقي ذكوري النزعة والقيم، وقد فعلت ذلك بوجد وتحذ، وبرغبة عارمة وإيمان خالص باحقية دعوتها، مستنفضة المرأة ومطالبة إياها بتزع حجابها ورفع صوتها طلباً للحرية، ونيل الحق بالتغيير.

كتاب نظيرة زين الدين الذي قيص له أن يهز العالم العربي حمل عنوان "السفور والحجاب" محاضرات ونظرات مرماها تحرير المرأة والتجدد الاجتماعي

في العالم الإسلامي". مؤلفته كانت ابنة لشخصية قانونية هي سعيد زين الدين الذي شغل في ذلك الوقت منصب الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف في الجمهورية اللبنانية، والكتاب مهدي إليه، وقد تألف من خمسة أقسام وعناوين كثيرة اندرجت تحتها موضوعات أثارت مجتمعة قضايا تتصل بحقوق المرأة وحريتها ومكانتها الاجتماعية، وأحوالها المتأخرة في ذلك الزمن، والدعوة إلى التجديد والالتحاق بالمدنية الحديثة.

تطرقت نظيرة زين الدين إلى مسائل الحرية والحق والشرع والدين والعقل، بوعي نقدي لافتم، وقدمت ما اعتبرته نوعين من الأدلة على وجوب تحرير المرأة ومساواتها بالرجل: الأدلة العقلية والأدلة الدينية، ورات تداخلاً بين هذه وتلك، لأن الدين والعقل متمازنان في الحق لا يفترقان، وسأقت في كتابها آراء مصادرة لتحرير المرأة ففندتها وعلقت عليها، ورفضتها. واتسمت لغتها بالبساطة والوضوح ولم تغب عنها الفصاحة، بل إن الخطاب الذي بلورت فيه نقدها اللاذع للذكورية

المجتمعية احتفظ بنبرة أدبية راقية. ولقد تميز خطاب الكاتبة بالقدرة على الإقناع، حيث أنها استقطبت لدعوتها الانصار من حيث جلبت على نفسها الإعداء، الذين ما لبثوا أن اشتبكوا في ما بينهم في سجلات استمرت زمناً طويلاً، وهو ما حدا بها لاحقاً إلى جمع مادة السجالات واستعراضها والرد عليها في كتاب آخر أطلقت عليه اسماً متحدياً هو "الفتاة والشيوخ" جدد بدوره الضجة التي أثارها كتابها الأول. وقد شارك في تلك السجلات كبار الشعراء والمفكرين والكتاب وعلماء الدين العرب في القاهرة ومدمشق وبغداد وبيروت، ممن طبقت شهرتهم الأفاق وسادت أقلامهم في النصف الأول من القرن العشرين.

\*\*\*

واحدة من أبكر المحاولات، ولعلها الأكبر، في استعادة هذا "السفور والحجاب" من التعقيم والنسيان، في إطار مشروع ثقافي عربي للكشف عن الأعمال والشخصيات المؤسسة لدعوة

تحرير المرأة في الثقافة العربية تمت على صفحات مجلة "الكاتبة" التي صدرت في مطلع العشرينات الأخيرة من القرن العشرين.

**تطرقت نظيرة زين الدين إلى مسائل الحرية والعقل، بوعي نقدي لافتم، وقدمت ما اعتبرته نوعين من الأدلة على وجوب تحرير المرأة ومساواتها بالرجل: الأدلة العقلية والأدلة الدينية**

وقد أثار نشر المجلة لنماذج من كتابات نظيرة زين الدين إلى جانب أعمال كوكبة من الكاتبات والكتاب ممن تصدرت أسماؤهم الدعوة لتحرير المرأة، انتباه القراء العرب الذين اكتشفوا في ما أعادت "الكاتبة" نشره وتسلط الضوء عليه من نصوص وأعمال مجهولة، نماذج وأسماء

وسعت بحضورها المتجدد رقعة مؤسسي خطاب تحرير المرأة في أذهان القراء، وأعدت إحياء أسماء أساسية في ذاكرة الثقافة العربية المعاصرة.

\*\*\*

وبالعودة إلى تجربة نظيرة زين الدين، فإن السؤال الذي ظل يشغلني إثر حصولي، سنة 1993 على نسخة من الطبعة الأولى لـ "السفور والحجاب" المحفوظة في مكتبة سائنت أنتوني في جامعة أكسفورد، هو عن أسباب إهمال الكتاب فلم تظهر منه إلى النور حتى مطالع التسعينات سوى طبعة واحدة، على الرغم من كل ما أشاره الكتاب من جدل في المراكز الأساسية للثقافة العربية؛ فهل كان يكفي الانتصار المؤقت للسفوريين على الحجابيين بدءاً من الثلاثينات، حتى تضرب الثقافة العربية صفحاً عن الكاتبة وكتابها وتركه يؤول إلى النسيان؟

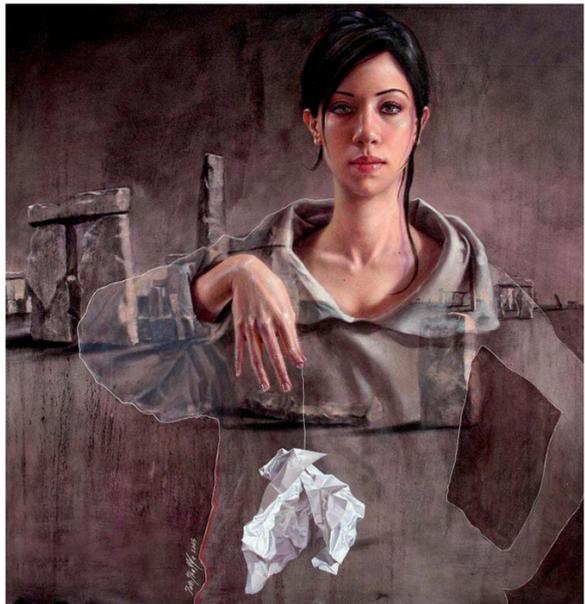
الإجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى بحث مستفيض ليس في سيرة الكاتبة،

وحسب، وإنما في الوقائع والصراعات المجتمعية والسياسية والتحويلات التي عرفت المنطقة في ظل الانتداب الفرنسي والبريطاني في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي، وتمكن الإشارة هنا إلى بعض النشاطات الثقافية التي جرت في ظل الانتداب ونشطت من خلالها النساء العربيات المطالبات بحريتهن في مصر والشام. وهو ما يفسر الاتهام الذي وجهه أحد المثقفين التقليديين اللبنانيين -مصطفى غلاييني- للكاتبة وكتابها، بقوله إن "السفور والحجاب" هو كتابهم. ويقصد أنه كتاب وضع بوحي وتشجيع مباشرين من القوى الناعمة للانتداب، بقصد اختراق المجتمعات الشرقية المسلمة فكرياً وخلخلة قيمها عن طريق استقطاب النساء وجعلهن يتبنين قيم الغرب الاستعماري، ويرتبطن بمنظومة الأفكار الغربية.

هنا قطوف من كتاب "السفور والحجاب" حول مسالتي "الحجاب" و"حرية المرأة"، أخلي لها ما تبقى من مساحة هذه الكلمة.



(غرافيك «الجديد»)



لوحة للفنانة سارة شمة

قال أحد الفلاسفة: أما ألا يكون حق لأحد الناس، أو أن يكون لكل فرد حق مساوٍ حق الآخر، ومن جرد غيره عن حقه، فقد داس بقدمه حق نفسه.

وحجبها وحبسها دون تبديل ولا تغيير، خروج عن سنة النسوة والارتقاء، ولا يصح القول إن حق الارتقاء من حال إلى أصلح منها، مختص بالرجل وحده فقد

حتى سقطت دعواها، وإنهارت صروح مجدها، وتدرجت تيجان أصحابها، وأكرهت على التسليم بأن الشعب قوام عليها، كما هي قوامة عليه، فحفظت الموازنة، وبطل الاستبداد، وسادت الحرية والعلم، وتكامل الأدب، وسعدت العيلة، والمجتمع البشري.

\*\*\*

يا سيدي الرجل، إن الرقي والأخلاق في الحكومات المستبدة الغاشمة المستعبدة شعوبها أخط منها جداً في الحكومة الحرة العاقلة، كان يقال إنما العاجز من لا يستبد، فاصبنا اليوم، وكل يخجل من أن يوصم بالاستبداد، لأنه ينافي العدل والمروءة، ينافي العقل والمصلحة، والأدب والاجتماع.

يهم الحكومة المستبدة أن تقبض على رقاب الناس، فتقيد حرياتهم وتختف أصواتهم وتكسر أقلامهم لتأمن.

\*\*\*

يا سيدي الرجل، إن القول بوجوب بقاء المرأة عندنا على حالها من الجمود،

## قول في الحرية

والجمود، لن تكون أبداً كما قال بعض الحكماء مصدراً للفضيلة، ومدرسة لتربية النفوس على الكبر إلا إذا صح أن يكون الظلام مصدراً للنور، والموت علة للحياة والعدم سلماً للوجود.

\*\*\*

لا نستطيع أردنا أم لم نرد أن نقف حاجزاً في سبيل تيار النهضة الحديثة وما تتحفنا به من آراء جديدة في العلم والاجتماع.

\*\*\*

بدلنا التاريخ، أن قوى الكون القاهرة، ما استطاعت إيقاف شمس الحرية عن الشروق، متى جانت ساعته، إنه ليس من قوة في الأرض تمنع الحرية أن تشمل هذا الكون بنورها الساطع كما يشمل نور الشمس هذا العالم. ولكن، كما أن الشمس، لا تشرق دفعة واحدة على العالمين، بل تتناول الجبال أولاً ولا تهبط أشعتها إلى الأودية إلا بعد أن تصل إلى أعلى العرش، كذلك شمس الحرية، تشرق في أول الأمر على النواحي

ذلك هي الحرية أيها السادة، إنها منبع الخير للإنسان، وأساس رقيه الأخلاقي وكماله الأدبي إذا هي بنيت على التربية الصحيحة، هي التي ترفع عقل المرأة وتزيد نساءً وتقفياً، وتفهم المرأة معنى الشرف وطرق حفظه، وتحبي فيها عاطفة الثقة بنفسها، وتحمل الرجال على احترامها، يجب أن نعلم كما يعلم سائر الناس أن استقلال النساء كاستقلال الرجال، يخلق بالنفوس إلى ما فوق، ويعدها عن مواطن الرذل.

يجب أن نعلم، أن استقلال الإرادة أهم عامل في نهوض الرجل، فلا يكون له في نفوس النساء إلا مثل ذلك الأثر الطيب.

يجب إطلاق المرأة وتحريرها، وإيقاظ ضميرها الذي خدره الخدر، وأنامه النقاب والحجاب، وجعل ذلك الضمير المستيقظ الحي متولياً بنفسه محاسبة صاحبته على جميع أعمالها، ومراقبة حركاتها وسكناتها، فهو أعظم سلطاناً وأقوى بدا من سيدي الرجل.

\*\*\*

يجب أن يعرف سيدي الرجل أن العبودية، وهي مصدر الذل والخمول